التكثيف الرمزي و الدلالي في الخطاب الصوفي

بلغول منصورية

تحت إشراف الأستاذ: حمودي محمد

جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم

مقدمة البحث

يقوم التصوف على اللغة الرامزة التي تحمل المدلولات المغلقة ذات الكثافة الإيحائية فيها الكثير من الدواخل والمكنونات تخص المعنى العميق الباطن الذي لا تفك شفراته إلا الأبعاد الروحية ذات الكشف والمكاشفة الماورائية للنص الصوفي، مما يستدعي إعادة إنتاج النص الأصلي من جديد وبعث الفهم والإدراك فيه من جديد، هذه مهم القارئ المتمكن الذي يبحث عن قصدية الصوفي وسط الغموض الذي يشوب اللفظ الصوفي.

الملخص:

إنّ الحديث عن الخطاب الصوفي يكون بالبحث عن المؤشرات الباطنية الخفية التي تغوص فيها اللغة الصوفية بين ازدواجية المعنى وظاهرية اللفظ، وما بينهما تنوع في التأويلات تعكس خلفية القارئ الثقافية ومدى تمكنه من فهم القاموس اللفظي للمتصوفة، فالتصوف هو ذلك الخلل المفاهيمي الذي يحاول فيه القارئ ضبط تلك اللغة وفق آليات معينة تتولد عن شحنات تخييلية وتناقضات وجودية تمخضت عن الخطاب الصوفي.

الكلمات المفتاحية: التكثيف الرمزي /الاضطراب الدلالي /الخطاب الصوفي .

Abstract :

The talk about the mystica l discourse is the search for hidden mystical indicators in which the Sufi language dips between the dual meaning and the appearance of the word, and what is between them is a variety of interpretations that reflect the reader's cultural background and his ability to understand the verbal dictionary of Sufism. Sufism is the conceptual imbalance that the reader tries to control Language according to certain mechanisms generated by imaginary consignments and existential contradictions that resulted from Sufi discourse.

التكثيف الرمزي والاضطراب الدلالي:

لا يعدّ التصوف من القوالب الجاهزة سياقيا ،بل هو نموذج عن لغة انفجارية صارخة تعلن الكثافة الإيحائية في الدوال والمدولات معا، فلا يحمل اللفظ وحده ذلك الإيحاء وإنّما يتعدّاه في كون المعنى مبهم صورة مشفّرة يتعارض فيها الواقع مع الخيال ،من أبواب كثيرة منها المشابهة، فالشبهة الصوفية عند الصوفي هي التي عكست ذلك الاضطراب اللغوي والدلالي،فانصرف اللفظ إلى عدّة معان،وحتى هذه الأخيرة تشظّت إلى صور ميتافيزيقية مختلفة ،وفهمها يحتاج لمساءلة اللغة من جديد

يعدّ الرّمز عنوان التصوف الذّي يفرز تراكمات ضمنية تسفر عن مجاهدات روحية اعتمدت عدة مناهج،و اتخذت مصطلحات تعكس الممارسة الوجدانية العرفانية التي عايشها الصوفي ، كشف فيها الرحلة الصوفية ،وغلبة الهاجس على الحقيقة،وهذه لا تقود للواقع وإنّما للكشف ،فانبعاث الأسرار دليل الوصل لا الفصل،وممّا يلاحظ في الرمز الصوفي هو ذلك التجريد والتفريد في الصفات والأفعال وكذلك الأحوال التي تربط الصوفي بالذات الإلهية ،وكأنّ الرمز حالة من الأنانية المفرطة جمع بين ذاتين،ولكن تأتي اللغة لتكشف فقط عن فوهة الباطن السحيق ،ونيران المحبة بين المحب و المحبوب.

الرمز هو بحث مستمر عن الحضرة الإلهية ،و الحقائق الوجودية ،يعانق فيه الصوفي ظلمته ،تفيض معانيه حينما يحاول الصوفي اختزال النورانية والأعيان الثابتة ،وهذا ما يغيّب حقيقة عن القارئ وإلاّ وصف المتصوف بالجنون إذا كشف عن ذلك الكامن الغامض في الغيب فالعقل الحسي لا يستوعب طاقات مطلقة من عوالم الروح والجبروت ،إذ لا يستطيع المتلقي التمييز بين الحقيقة الحسية والحقيقة المجرّدة ،يحتاج الفرار من سلطة المتصوف الوهمية ،والبحث عن الإلهام الذي تركه الصوفي في ثنايا أحواله المضطربة،فمثلا المنازل الرّوحية هي في الأصل تعارض الروح مع الجسد، و انتقال بين حال وحال ،وهذا الأخير يعبّر عن مجاهدة روحية وبحث عن يقين، وحتى يباغث المتصوف القارئ ينزله إلى مستوى الشطحات الصوفية والوجد حتى يأتي القارئ ويتهم المتصوف بالرقص ،حتى يعود أدراجه للواقع، وهذا بحدّ ذاته واجهة واضحة لمعطيات الرمز الصوفي ، فالمتصوف أصلا لا يحاول البوح أبدا عن الأسرار البرزخية للقارئ ولو فهم بالخطأ فالمرجعية التي يعتمدها كلّ منهما لا يمكن أن تتوافق أبدا في ظل لعبة الرّمز، و أول ما ينطبع في نفسية القارئ عند قراءته للنماذج الصوفية هو ذلك المصطلح للجدل الذي يعكس عنصر الإثارة اللغوية.

فتفرّع اللفظ وانشقت معه الدلالة ،وارتبك القارئ في ضبط المفهوم وماهيته في التصوف الفقهي أو الفلسفي ،و البحث عن هويته من القرآن والسنة والفلسفة، أيضا البحث عن تلك السيكولوجية الصوفية ،حتى أصبح القارئ بين مد وزجر ،يتقفى الأثر الصوفي الذي تعدّد إلى أن يتبدّد استعداد القارئ في فهم النص ومن ثمة يدخل في باب التأويل الخاطئ ،فالرمز هو تجربة الذات الصوفية وثّقها ذلك التخييل المرتبط بمتغيّرات.

وعلى القارئ أن يستجيب لها وفقا لمنهجية الفهم لديه ،فالتصوف موروث ثقافي لا يشترك فيه جميع المتصوفة فما بالك المتصوف مع القارئ ،ونستوضح ما يقوله بن عربي في هذا الشأن :"ليس في استطاعة أهل المعرفة إيصال شعورهم إلى غيرهم وغاية ما هذا الاستطاع هو الرمز عن تلك الظواهر لأولئك الذين أخذوا في ممارستها .."[1]، ويقصد بذلك هو أنّ مقاصد الصوفية لا تتاح للجميع ،ولا يتمكن الصوفي من إنزال مستوياته اللاشعورية في ذهن القارئ وفقا لإدراكاته ،فالذّي عاشه المتصوف يجب أن يتذّوقه المتلقي ،و يسعف نفسه من خطورة التأويل المنحرف ،حيث أنّ " التأويل الصوفي تأويل يخالف الظاهر بمقتضى إشارات تظهر لهؤلاء المتصوفة بعد رياضات روحية مع الله سبحانه وتعالى .."[2]

يتحرّى الصوفي نقل وجدانه و مواجيده بعمق فني واضح في نصوصه عن طريق لغة الرمز المكثّف الذّي يلخّص معاناة الشاعر الصوفي مع ذاته ،يفهم ذلك من خلال التمظهرات اللغوية في النص الصوفي التي تشكل منعطفا مختلفا في السياق، وحتى في بنية النّسق ،وذلك أنّ الرمز الصوفي بنية تصويرية وتجريدية ،تتوّلد منهما ظاهرة القبول والرّفض عند القارئ، فاللغة الصوفية لا تستعين بضوابط ،وإنّما تتعارض مع المتعارف عليه من معايير ونظم لسانية ،فلذلك يصعب المقارنة بين الخطاب الصوفي والخطاب العادي.

وبالتالي يمارس الصوفي بعض الشذوذ الفكري –إن صح القول- في نقل التجربة لم يصدر منه ذلك عبثا وإنّما يريد به بعث الشك في نفسية القارئ ، وعليه يسهل جيّدا التفريق بين الخطابات العادية وأخرى، حيث " يتصل الخطاب العرفاني بما يحيط به وينفصل عنه أي أنّه يتكلّم بعبارات قد تكون مألوفة ومتداولة في الحقل الاجتماعي يسحبها من ألفتها الاجتماعية ويدجّنها لتتماشى مع فضائه المبهم ويطوّعها لتعانق رغبته المتوهجة ..."[3]،إذ يشكل الرّمز تلك الأنا التي تجاوز الظاهر وكذلك "مستوى الألفة المعتادة التي نستقبل بها النص الشعري قد يضللنا ولن يفضي إلى فهم صحيح"[4].

ذلك أنّ تلك الشفرات الصوفية أحدثت تنافرا مهيبا داخل البنية النصية والتي هي في الأصل موجّهة للقارئ النموذجي، إذ القارئ العادي يقف مذهولا من حجم اللغة التعبيرية فـ"إجهاض دلالات الرمز يسبب المجاورة الرمزية ويضيق الفضاء النصي الذّي يضيئه كل رمز من الرموز ويطفئ إشعاع الرمز لانتهاء فعاليته بسبب إشعاع الرمز المجاور له فلا يكاد الرمز يأخذ بعد مداه في النص حتى يفاجئه الرمز اللاحق .."[5]، تتوالى الرموز في النص الصوفي ،وتتصاعد دلالاتها العميقة.

وما بين ذلك العمق ثورة روحية يتنكّر لها القارئ من الوهلة الأولى ،لتتزايد حدّة الفهم العقيم لديه، فيعيد إعادة تهيئة نفسه من جديد ،و من هنا نؤكّد بأنّ الرمز هو ملاذ المتصوفة جميعا " لما يحمله من طاقات الغموض والإبهام ،والإيحاء بقصد استلهام عوالمه الغامضة بوصفها مؤشرات على الباطن الخفي والداخل المستتر الذّي لا تستوعبه إلاّ الطاقات الكشفية ذلك أنه كيان مفتوح لا تستهلكه الشروح أي أنه يكتم سرا لا يبوح إلا جزئيا و بالتدريج.."[6]

إنّ إشعاع الرّمز وتوهجه قد يصيب القارئ بالعمى الكلي أو الجزئي إذ يرتطم بالمعطى الصوفي ارتطاما حادا ،من خلال استناد الشاعر لعنصر المفاجأة والغرابة معا ،ومن جهة أخرى يثير المتصوف القلق

النفسي ،فلعبة الجسد التي يمارسها هي أوّل تمظهرات الرّمز في النصوص الصوفية، تعتبر مادة دسمة في الفضاء النّصي الصوفي تمليه عليه طبيعة اللغة في توظيف الرمز ،فيحاول الرمز أخذ القارئ للعوالم المنفية من الذاكرة ،يرتقي إلى التعالي ، والكامن الغامض ،والصورة الملتهبة من الحب والشوق والسكر، فهو يسعى "للتعدد اللانهائي

لمعنى وأصبح النص حلقة من سلسلة متواصلة من الدلالات غير المقترنة بمرجع ما اصطلح عليه الدلالة المتعالية أو الدال المتعالي ..."[7]، تهتز الدوال والمدلولات ،و تغترب اللغة عن دوالها كما اغترب الصوفي تماما عن عالمه الحسي، فهي ذلك الانغماس الفكري الذّي تسيّره ظروف خاصة ارتبطت بحالة نفسية للمتصوف غير العادية فالرهان الذي يقع على القارئ هو تحليل اللاشعور والبحث عن خلفياته وربطه بالقواميس اللفظية الصوفية ومسايرتها وفق رجاحة البداهة بالإضافة إلى التعثر الذي كان عليه الصوفي .

إنّ فك الرّمز هو وسيلة القارئ الوحيدة ، وقد يستغرق أكبر قدر من الوقت حينما يرتبط الأمر بتلك الكثافة العالية التي أحدثت اضطرابا صريحا ،وضبابية قرائية وعلى القارئ التبصر أكثر في الرموز فهو موكّل برفع التهمة عن المتصوف والشبهة عن نصه بالانفتاح على المغلق ،ومعالجة الصدمات النصية دون الرّضوخ لزيف اللغة الصوفية ف" الالتباسات النصية البديهية تشبه لغزا ينبغي لنا حلّه..", من أجل إحداث التفاعل وتوسيع حركة التواصل بين الذواتين القارئة والمتصوفة، و يترقّب المتلقي حضور الرمز في النص ،ويتوجس من معانيه الخفية ومدلولاته الغامضة و المثيرة "[8].

وإبراز ما هو خفي يحثّ القارئ على الفعل، ولكن هذا الفعل يكون مراقبا أيضا بما هو مكشوف ،و يتغيّر ما هو صريح بدوره عندما يبرز إلى الضوء .."[9]، حيث يضمر المتصوف الأسرار الصوفية، ويكشف عن الحقائق الكونية الوجودية، و يلتوي المعنى بين المضمر والمعلن، ثم يأتي القارئ ليعلن حظره لبعض المفاهيم ،أو إعادة بنائها من جديد ،حيث أنّ "المعاني الضمنية وليست التصريحات هي التي تعطي شكلا و وزنا للمعنى "[10]،فمكمن الجمال في الخفي، هذا الأخير خلاص المتصوف الروحي ،حيث يفتح الرمز ممارسة قرائية من

نوع آخر ينقل القارئ من القراءة العميقة إلى القراءة التأويلية ،هذه الأخيرة فيها إعلان عن انتهاء صلاحية المتصوف ،وعليه أن يأخذ بمبدأ التأويل لا التفسير أو الفهم المرّوج له عند الكثيرين القرّاء، و إنّ التدرج في فك الشفرات والرموز الصوفية لا يعتمد أبدا على الدرجات الدنيا من المعايير كالفهم والتفسير ،فالتصوف بعيد كل البعد عن هذين المفهومين إذ يتأثر بنماذج التأمل الروحي والحكمة في الفلسفة فأغلب المتصوفة نهجوا نهج التصوف الفلسفي لا التصوف الفقهي.

وبالتالي يستحيل الأخذ كلّيا بهما فمشكلة الرمز ليست معجمية أبدا ،وإنما في الإيحاء الدلالي الذّي تتضارب فيه الأبجديات والمضمرات الصوفية ،و علينا أن نشير بأنّ الرّمز يعيد مجد القارئ ومكانته يشارك المتصوف في التحليل البنائي للنص ،ولو أنّ العلاقة بين القارئ والمتصوف تقوم على الجدل ،فالجهل

بالقاموس اللفظي للمتصوفة هو الذّي يعيق باب الاستيعاب أمام القارئ ويحول دون الوصول إلى تعديل الرؤية الصوفية لدية وملاءمتها لقصدية المتصوف .

إن المباغثة الصوفية تلك هي المؤشر وعلى القارئ الأخذ بها لتحطيم المدلولات المشحونة، وهي أيضا اختبار لحالة الوعي الإدراكي بامتياز ،و المشكلة الأساسية التي يقع فيها القارئ هو فكرة عدم التقبّل أو انعكاس رد فعل الإجابة لديه بطريقة سلبية سرعان ما تتلاشى عند كل لحظة قرائية جديدة ،فالممارسة القرائية لها دورها في امتصاص النفي المتكرر عند المتلقي،يتولّد من الرّمز إمكانات لا محدودة من التأويلات ،يصدر من خلالها القارئ أحكاما ترد في معظمها تعسّفية حينما يعجز جزئيا أو كليا في ضبط الدلالة الحقيقية لذلك الذّي ينفلت في كلّ مرّة قبضته ،إذ لا يحكم استقراء معطياته الروحية ،يعلق في لغة الجسد

التّي يوهمه بها المتصوف بالإضافة حجم القوالب الاستعارية التي يربطها بالرمز فيعطي للغرابة حقها،فالاستعارة لون من ألوان الرمز قامت على اختزال التجربة الصوفية،وهي تلويح رمزي إذ يمكن اعتبارها ذلك "الإضمار المبدئي الذّي يحرّك خافيات الأشياء دون أن يبرز على سطحه ولا حتى أن يتجاوز الحس الغامض إلى الوعي الصريح..."[11]،حيث يكون الاضطراب الدلالي واضحا في النصوص الصوفية ذات البعد الفلسفي أكثر منها في النصوص الصوفية التي تكشف عن معطى سني.

المرتبط أساسا بمفهوم الزهد ولا نقصد بذلك التأويل القرآني ،ومرّد ذلك الاضطراب تحيّز القارئ للواقع واقترابه من المادة، وهذه هي المعادلة الفارقة بينه وبين المتصوف، فالرمز يخضع لسلطة يجب أن تؤدي دورها في عملية التأثير ،وتنتج من حس تفاعلي ،و"التجاوب من علاقة جدلية بين الإظهار والإخفاء وبتعبير آخر ينشأ من الفرق بين ما يقال وماذا يقصد ..."[12] ،فتخطي أزمة النّص الصوفي يكون بحل معادلة الرمز المضطربة .

وفي هذا الشأن يشير البسطامي في قوله: " التصوف اضطراب فإذا وقع سكون فلا تصوف ،ثم لا يحصل له الفهم إلاّ بالوصل الإلهي .."[13]، يتأسس الرمز على تشكيل ثنائي بين الذات الصوفية والذات في الواقع ،وعلى القارئ البحث عن مكامن الوصل تلك، ومن جهة أخرى فالاضطراب أيضا هو "نشر لسطوح الفهم المنسحب خلف اللغة، وبالتالي تغريب الزمان خارج نطاق الوعي بالذات الإلهية ،وكأنه كشف للازمانية العالم الأخروي انتهاء، وما قبل الخلق ابتداء إذ العلم بلا زمان والوجود بلا مكان "[14]

كأنّ الرمز هو آلة الوجود ،هذا الأخير الذّي ركّز عليه الصوفية في موضوعات ،ومنه تشتت اللغة الصوفية ،وعلى القارئ أن يعطي للسكون منازله في موجة تلك الاضطرابات اللغوية، ومن المعلوم فقد تشكّلت الرمزية في الأدب الصوفي في الأساليب التعبيرية خدمة للمعاني الصوفية الباطنية ،بلغة التخييل ،جمعت بين "الرمزية الأسلوبية والرمزية الموضوعية التي قد يكون أسبابها الموضوع نفسه، أو استعمال الأقيسة المنطقية ،والمقاييس الفلسفية والأولى يمكن أن تعرف بأنها الإغراق في أوجه البديع والبيان وبخاصة الاستعارة والمجاز والكناية والتمثيل والتورية .."[15].

وهذا التلويح الرمزي يحمل بعدين الأوّل عجز المتصوفة عن نقل الوجدان الروحي وتقريبه للأفهام المتعالية النموذجية ،أمّا البعد الثاني يتحدّد في حجب المفاهيم الصوفية عن العامّة بلغة إشارية صعبة المراس والتفكيك، على القارئ أن يتذوق النصوص الصوفية من خلال تقبّل الرّمز الصوفي المغاير ،ويعطيه حظه بالتذوق لا الدراسة ،فهذه الأخيرة "تصيب ظاهرا منه وشكلا أو رسما، وربّما كانت حجابا أو ظلمة تبعد الدارس عن النور بدل أن تغمره بلآلئه.."[16]

ولذلك نبّه المتصوفة بضرورة نيل درجة خرق الحجب وأن يكونوا ربانيين لأهل الخاصة دون غيرهم ،فالرمز الصوفي خصّ للعامّة مثل ما أشرنا سابقا، و الصوفية يمجّدون هذا المنحى، لعجز اللغة البشرية على توصيف التجربة الصوفية ،إذ يرى رولان بارت تلك اللغة التّي "لا خارج لها إنّها انغلاق "[17]، وأيضا الشفرة غير العادية أو الخارقة ما ميّزت الشطحات الصوفية و المواجيد والبعد الميتافيزيقي –إن صح القول-هي التي تعزّز التنافر بين المتصوف والمتلقي، على عكس الشفرة العادية المشتركة المتفق عليها والمتعارف عليها عرفا

ونظما التي تكون وفق تنشئ "قناة فيزيقية واتصالا نفسيا بين المرسل والمرسل إليه ،يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه..."[18]، يحدث الرمز خللا في وظيفة اللغة التواصلية ،فهو" نظام من القيم مختلف عن كل واقع .."[19]، وما يحدث للصوفي يعكس صورة التجريد وصراع بين المادة الروح، فكثافة الرمز تظهر من خلال " كثافة التعبير فالجدارية مقتصدة في لغتها ماكرة في رموزها ،و هي في الوقت نفسه متسعة في دلالتها تبني لغة وتهدم أخرى، ووحده القارئ العارف يلملم هذا الانشطار ويعيد تصوّر اللغة الماكرة، وفق استراتيجية قرائية تؤلّف بين ما كان وبين ما هو كائن..."[20].

يصعب على القارئ إعادة تلخيص التجربة دون كسر حاجز الرمز الصوفي ،وتوصيفها بمعايير مأخوذة من الواقع، على أن تفرغ من شحنة الواقع المادية، وتسّد الثغرات تلك بأنظمة ميتافيزيقة ،ويمكن أن نقول بأنّ الرمز هو ذلك التناقض الذي ينتج عن تضادين لغويين متفقين في اللفظ فقط، ويبتعدان كليا في صياغة المعنى الواحد فشتّان بين الواقع والخيال ،بين الحس والمادة، وبين الباطن والظاهر ،بين ذات واقعية مقلدة ،وبين ذات تخييلية مبدعة.

إنّ كثافة الرّمز الذي يحيط بأسرار الحقائق الوجودية والربوبية تفتح لصورة المبهم نوافذ الاستفزاز والاضطراب الكوني، وهي آلية تحرّك وجدان القارئ وتخطف أبصاره عن متغيّرات الحقيقة والوهم إلى التخييل الصوفي ،وهذا ما يثير هيمنة الصوفي على جمهور القرّاء من خلال المسافة الفاصلة بينهما الذي يخطّها التجريد الصوفي والاستبطان، فلطالما كان الاضطراب وسيلة لإخفاء الأذواق الصوفية في سياقات غير مألوفة "إذ تأتي العلاقات القائمة بين التراكيب في النص على نحو غير متسق ويخالف ما ألفته الأسماع سالفا وما اعتاد القارئ على تلقيه في النص الشعري العادي ..."[21].

ذلك أنّ الخطاب الصّوفي هو طبيعة ماورائية تقوم على المفاهيم البرزخية ،وهذا محطّ الغموض نفسه عند القارئ ،وغرض هذا الأخير هو البحث الرمز المضاعف ،ومنه فالغموض هو انكسار الذات

المتلقية ،والخضوع لقوّته التأثيرية، حتى تصبح المعانى صعبة المراس والافتكاك بالنسبة للقارئ بحيث أنّ "الطابع التصريحي المباشر للمقاصد الحقيقية في العمل الأدبي تجعل من التأثير ضعيفا ويقوى هذا التأثير إذا ما تراكمت وتعقّدت الاستدعاءات النصية ..."[22] ،فالخطاب النصي يستدعي أن يمتلك القارئ العقل الأعلى الذي تفهم به نصوص اللوح المحفوظ في بؤر التعالي ليصل إلى ماهية القصد الفني الخفي في النّص الصّوفي.

يتعمّد فيه المتّصوف أن يثير من خلاله جدلا وتساؤلات مستمرة متعاقبة لا تكاد تنطفئ نيران الحب والشوق ولهفة العشق الإلهي فيها ،ومن جهة أخرى يعمد القارئ إلى البحث عن صور الملاءمة النصّية وفق معاييرها الصّوفية الخاصة، وكسر معاييره التّي استهدفها مسبقا كأحكام مسبقة تعقّبها عبر مستوياته العقلية الإدراكية، وذلك الإدراك هو ما يزيد بعدا عن جوهر التصوف ،ممّا يكثّف هوّة الاضطراب النفسي الدّاخلي الذي يتجاوز الرسائل الصّوفية المشفّرة.

تلغي الاضطرابات النصّية الصوفية التوجهات الحسّية ممّا يفرض على القارئ إعادة الإنتاج النّصي الخالص لا يقوم على الشرح أو التفسير وإنّما إلى التأويل الرّمزي ،وليس الحرفي أيضا، ففك تلك الاضطرابات يرجع أساسا إلى كفاءة القارئ وتعدّده تقبّله و مدى استقباله الصحيح للمنظور التجريدي من خلال تحرير نفسه من الصدامات النفسية المتكررة وملاحقة الرموز الصوفية المضاعفة بإلحاقها مع مدلولات الغياب والحضور المثيرين لدهشة الاضطراب، و لعلّ الاضطراب الصوفي هو تماهي صورتين تتجسد في مفهومي الألوهة الجامعة بين الحق والخلق، بالإضافة إلى الربوبية هذه الأخيرة لا تفضي إلى منعرجات الحس والحقيقة الحسّية.

وإنّما هي معان صورية معنوية لا تفرز معطيات البوح أو التصريح بدلالات الرمز، فكلّ رمز من الرموز ماهو إلاّ غطاء صوفي للأسرار الإلهية و الرّبانية التّي لا يجوز هتكها من طرف الصوفي أو الكشف عنها، لأنّ البوح بتلك الكمالات الهيولية ماهو إلاّ تظليل لغوي، لا وبل تيه عن الحقيقة الكشفية نحو البرهان الذّي لا يشفع للقارئ حين يلتمس مشاهدة بصرية لإشعاع الرموز، فلا تفهم نصوص إلا بفصل المعاني عن رؤية العوالم المتصلة بالرؤية بحكم الظلمة التي هي أصل البنية النصّية الصّوفية والحدث

الصّوفي للمتصوفة ،وتلك الظلمة هي التّي تشعر بالقلق في كل ثغرة وشعور بالخلل والنّقص بسبب تلك الغشاوة التي يفرضها المتصوفة على القرّاء العاديين ،و لا يحتاج النص الصوفي إلى تطابق بين الدال والمدلول حتى يوصف بالوضوح ،كما لا تستدعي التجربة الصوفية الدقة في الوصف حتى تنجح في إلغاء المقيّد والمخالف من للحضور الذاتي ،فيوضع محل الخيال الصوفي الوهم، وإحالة الأسرار الإلهية لدائرة الشيطان ،فأحيانا لا تفهم العلاقة التي تجمع بين المسبب والسبب، وتأخذ الاختلالات مجراها في فهم طبيعتها السببية أو المسببية.

حتى الحروف الصوفية شقّت المعاني،وفكّت جاهزية الفهم لبعد الفواصل بين المسافة النفسية للمتصوف ومسافة البوح،فانغلاق النص الصوفي أباح الغموض في تلك الدوال المتناقضة التي شتتت

المدلولات الحسية والمعنوية معا لمثلث (الحق/الخلق/الوجود)،ففي"التصوف كتمان المعاني وترك الدعاوي،وأشباه ذلك وهو يسيرون بالصوفي إلى معنى الصدّيقين أفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون ... "[23]

إنّ التصوف هو تشتت للبعد الغائي الملحق بالعدم تستتر فيه المدلولات في غياهب الذات الصوفية عندما تتقاطع أحوالها مع مسافات عروجها ونزولها،وتلك المسافة مبعث الوجد والتواجد هذا ما يقابل الاضطراب،ومردّ ذلك إلى تعدّد الأحوال وتراكمها في الذات الصّوفية،فتلك التراكمية هي موضع الإعاقة الفكرية التي تصيب القارئ ،وما يعيق التّفكير القرائي هو صعوبة وصف الأحوال الصّوفية ونقلها إلى القارئ وفق سنن متعارف عليها خاضعة لآلية تواصل فعلية.

إنّ كثافة الرموز تدّل على حمولة الأسفار الصوفية من حيث دلالتها الوجودية والكونية،ونقيض الكون هو الوجود نفسه ،وهذا الأخير سبيل الانغلاق لأنه يعبّر عن صور من الخيال الدخيل بالوهم ،فينقطع الاتصال الكوني،لأنّ الذّي يتكشف عن الوجود ماهو إلا انعكاس جزئي لماهية الكون الحقيقية ،ومادامت الأبصار لا تدرك الأسرار ،نجد ذلك التشفير الذي يأتي وفق آلية مغلقة ومنغلقة على الآخر، مما يؤزّم عملية الاتصال الخالي من عقم الوضوح الصريح،و ما يجعل الفهم مستعصيا هو تعدّد المقاصد والتأويلات.

يرجعان إلى طبيعة التفكير التي تميّز كل متلق عن الآخر ،وطبيعة الوصف لدى المتصوف،ف"الطرق إلى الله على عدد أنفاس البشر.."[24]،وبالتالي لا يستطيع الصوفي رفع الغموض الكلي عن المعنى الصوفي ممّا يصعب إلغاء توصيف الاضطراب،لأنّه في الأصل هو مرتبة من مراتب الوجود المرفق بالحال الصوفي،ومن جهة أخرى فعامل التواصل أو الاتصال الصوفي لا يفصل أمر الحواس والمعاني ظاهريا دون التعمق في زاوية الظلمة التي عاشها الصوفي،و"خفي على السامع الذي لم يحل مقامه،فإن م يحسن ظنه بالقائل فيقبله،ويرجع إلى نفسه فيحكم عليه بقصور فهمه عنه أو يسوء ظنه به فيهوس قائله ،وينسبه إلى الهذيان وهذا أسلم من رد حق وإنكاره..."[25].

ومنه اعتبر البعض الاضطراب مؤشر التلقي السلبي وهذا ما يوقع القارئ في دائرة التأويل الخاطئ،لكّن هذا الأخير لا يتأتى عند كامل القرّاء،لأنّ مستويات الفهم والإدراك تختلف حسب التوجهات القرائية فلا يقع في الخطأ من أدرك جوهر التصوف في مدلولات الاضطراب والخلل ،ولا يكون دور القارئ أو المتلقي للخطاب الصّوفي إصدار الأحكام العبثية،إذ يؤخذ بالذوق لفهم الكينونة الإلهية،فكلّ تصوّر قرائي يجب أن يكون مرآة دقيقة للوجود حتى ينتشي القارئ بفهمه نحو الكمال الإنساني.

إنّ الاضطراب الصوفي ومبدأ القلق يفرزان إشكالية استثارة ردود الفعل الإيجابية بسبب ازدواجيته في القصد الصوفي الذي تراكم بفعل غلبة الحال الصوفية ،ولا نغفل عن تعارض الفهم والقصد القرائي مع تجاوز اللغة الصّوفية لأحادية المدلولات،وتجاوزها لظاهر اللفظ،ولذلك كان التضاد جزءا من الاضطراب هذا الأخير الذّي هو صيغة للالتواءات النصّية ،ومظهر استفزازي في نظر القارئ ، وتجدر الإشارة

إلى أنّ الاضطراب هو تلويح وتصريح معا،بوح وكتمان ،يولّد مجاراة في المفاهيم من حيث كونه ممانعة للوجود،وصورة له في الوقت نفسه.

وكأنّ الصوفي يتلاعب بين اللغة العادية ويقحمها في حلقة التضاد ،وينقل اللفظ من معناه الأصلي إلى المجازي وتجاوز معناه الحقيقي المستمد من عالم المادة وحاجة المتصوف إلى كل هذا هو محاولة تقريب التجربة الصوفية الميتافيزيقية إلى المشاهدة العينية ثم التخييل عند القارئ ،وتحقيق التوازن بين عوالم المادة والروح،ومن جهة أخرى حتى لا توصف هذه التجربة على أنّها تحمل بعدا أسطوريا تقليديا،وإنّما مردّها إلى التأويل الصوفي الذّي يجمع بين المتضادين .

وتأكيدا لما سبق فإنّ الاضطراب مجمع الأضداد والتخييلات بآلية التشفير أو الرمز المغلق ممّا يستوجب الاستعانة بنموذج الحوار النّصي ،أو ما يعرف بالمحاكاة الصوفية لمواجهة لعبة اللغة المضطربة التّي تعين على إفراز المزيد من الثغرات النصّية وفواصل التشّبع،و يعبّر الاضطراب أو التكثيف الرمزي عن خصوصية التجربة الصّوفية واختلافها عن منحى الصورة النّمطية، فتتضاعف"التملّصات والانفلاتات عن عالم الواقع أو الإطار المرجعي للنظام اللغوي المستخدم فتتحطّم أمامه بعض القيود لأنّه وليد اللحظة الهاربة ..."[26]،فلا زمانية للحدث الصوفي،ولا مكانية للمدلولات الخاضعة لغير الوجود المجاز

وبالتالي جاءت اللغة الصوفية أداة للكشف لا التواصل الإنساني ،إذ تتعدّى الوظيفة الإبلاغية،فعمق التجربة الصوفية هو الذي يضاعف من كثافة الرّمز من حيث كونها مفارقة لغوية وفكرية واضحة منبثقة عن فلسفة وجودية تلخّص الدوال ومدلولاتها ،والألفاظ مع معانيها ،بين نصّ مغيّب يحتضر،و آخر يستحضر، يشتغل على اغتراب الصوفي ،يقوم من ركام حسّي ،و يرتقي مع لغة متعالية يفرض فيها الأنا سلطته ،فقد يواجه القارئ فيها بعضا من الإيحاء المستفز،وبناء عليه فإنّ الاضطراب هو استحضار لعوالم الغياب وفق مرجعية إيحائية ترميزية .

وتلك العلائقية الدلالية بين الغياب والحضور تضاعف من قيمة التأثيرات النصّية على القارئ،فتعدّد مستويات الذوق والتقبّل تنشأ عن تحرير الذوات من التقاطع المعرفي بين الرمز ومرجعياته السياقية، ويتأسس عنصر الحضور والغياب من الميتافيزيقا أو الصورة الماورائية الغيبية تحت إرادة العقل ومركزيته، فمضمون الخطاب الصوفي "يحرّر المكبوت ويشتّت الدال إلى دوال ملتحمة مع مدلولاتها،لكن في تطابق متصدّع وحضور مؤجل،..يعمّق ويجذّر ازدواجية الغياب في الذات.."[27]،وهذا ما يتجسّد جليّا داخل القوالب النصّية الصّوفية.

وممّا يخفى عن الكثير هو محاولة الصوفي تغييب كلّ ما يتعلّق بلغة الجسد حتى يحقّق الوصول الصوفي ،وهذا نقيض ما يصبو إليه القارئ هو فهم للكتابة النصّية بتلك اللغة الجسدية باستحضار الوعي ،و إنّ حضور الجسد هو المأزق نفسه،وممّا يثير استغراب القارئ أو المتلقي هو الاصطلاحات الصوفية التّي تفوّض للجسد صلاحية مطلقة في الخطاب الصّوفي،فحضور المحسوسات

يشابه إفناءها،واستنطاقها يطابق كتمانها،وهذه من المفارقات النصّية،وكلّ إماتة للنّفس هي إحياء لروح المثل العالقة بين الذواتين الإنسانية والإلهية ،أي المحسوسة و المعنوية،فلطالما قام الرمز الإيحائي على

النقيض لعدم انتظام الحضور النصّي وهذا مدعاة للاضطراب والتوترات النفسية والنصّية، واستنادا إلى مما سبق فإنّ استحضار المعاني ينشأ عن تلك الروابط الممكنة التي تكون محط الوضع الاسترجاعي الذي يتحكّم فيه ذهن القارئ بالرغم من تلك التراتبية والمتتاليات اللفظية ،فإثارة انتباه المتلقي تعكس قدرة المؤلف على تحفيز القارئ للبحث عن خلفيات النص وفراغاته غير الجاهزة على القارئ أن يصيد فرائس النص بتخميناته تلك،و يجيد اقتناص المعاني ذات الرمز المفرط، حتى لا يفرّط الجمع بين ثنائية الهو والأنا كفلسفة أصيلة تنشق عنها المعاني.

ينشأ النّص الصوفي خلف كلّ اضطراب وجودي ونفسي معا،وما يذوب فيهما من مدلولات ومكنونات تنخر النّص الصّوفي بمجاهدات لغوية مستمرة من طرف القارئ أو المتلقي بحثا عن مكامن المباغتة النصّية التي لا تقوم على الجاهزية في الدلالة،إذ"يوجد المعنى في مستوى ما من اللغة لا تنتمي المفردات إليه ...إنّ المعنى جزء من البنية العميقة ومن المستوى الدلالي المعرفي..."[28]،وظل المعنى في النص الصوفي يتكشّف بالماوراء،إذ يعدّ الاضطراب أيضا مسافة حافلة بحوار المفاجآت الكونية والوجودية والإنسانية،أي حوار الذات مع العالم الذّي يفيض كلّ منهما بالمعاني.

وما تلك الظلال إلاّ خيال العالم والإنسان معا وكلّ منهما تجلّيات لله تعالى، فمفاجأة الكون الماورائي هي التّي تبني المعنى ،وتلقي ظلال العالم والكون عليه ،فكانت أداة معرفية لابتكار المعنى الصّوفي في جرّ الإيماءات الصوفية و الإشارات الإلهية نحو الاستماع النصّي،و تذوّق العنفوان الصاخب وقد تم الفصل معرفيا بين جوانب المفاجأة التي تثير في نفسية القارئ تشويقا أو توترا وبين الإحباط النفسي الذي طغت عليه سلبية القراءة،ما يعرف بالقراءة المغلوطة ،ولرّبما الحكم المسبق الذي يصدر من القارئ حول

النصوص الصوفية،والتي رمز إليها لدى بعض القرّاء بالمشبوهة والمشكوك في مدلولاتها كمغالطة معرفية لكل ما هو جوهر المعنى و ماوراء الوجود،و جدلية الممكن واللاممكن، هذا يعود لنظرية المتصوفة في إقصاء الوضوح والتصريح، فالإحباط يصادر حرية القارئ في امتلاك النص من جديد،فهو"يوقف أو يلجم النشاط،كما يستلزم توجها جديدا لنشاطنا،إذا ما أردنا تفادي الوقوع في مأزق "[29]،ومحور نشاط القارئ هو تفكيك النص وإعادة بنائه يتقبّل فيها قناعات المتصوفة ويساير حركته القرائية مع نموذج التفكير الصّوفي،ومحاولة معالجة قصور النّص في تأدية المعنى الكلّي خاصّة ما كان غيبيا تجريديا.

إنّ الملاحظ لبنية الاضطراب القائمة على التكثيف الرّمزي ماهي إلا حضرة شاملة لمقامات وأحوال وتراكمات وجدانية ،عاينت ذوات متصلة ومنفصلة ،تزهر فيها المعاني من كنه التجلّيات الصوفية،تفيض منها جمالية ومتعة لغوية وفنّية يحاول فيها المتلقي استبدال عناصر الدهشة والغرابة والغموض بالحس الجمالي،وبلورة تلك التناقضات بشغف الإبداع حتى يبلغ فرط النشوة من صميم الروح.

الهـــــــوامش :

[1]محمد ابراهيم الجيوشي "بين التصوف والأدب"،مكتبة الأنجلو المصرية ،ب.ط،ص48

[2]رمضان علي حسن القرنشاوي " التأويل بين فخر الدين الرازي وبن تيمية "-دراسة مقارنة في الصفات الإلهية-،ت:زين الدين الخطيب،دار الوراق للنشر والتوزيع،ط1 ،2004،ص57

[3]محمد شوقي الزين "تأويلات وتفكيكات"-فصول في الفكر العربي المعاصر-،المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب،ط1، 2002،ص

[4]سامح رواشدة "إشكالية التلقي والتأويل"،منشورات أمانة عمان الكبرى،2001،ط1،ص69

[5]المرجع نفسه،ص 71

[6]عبد القادر فيدوح "الرؤيا والتأويل"-مدخل لقراءة القصيدة الجزائرية المعاصرة-،ص69

[7]عبد الله ابراهيم "التفكيك"-الأصول والمقالات-،منشوات عيون المقالات ،باندونغ البيضاء،ب.ط.ص70

[8]فولفغانغ إيزر "فعل القراءة"-نظرية جمالية التجاوب في الأدب-،ت:حميد لحمداني،الجلالي كدية ،منشورات مكتبة المناهل ،فاس،1995ص83

[9]المرجع نفسه،ص100

[10]المرجع نفسه،ص100

[11]فردبنالد هالين،فرنك شوير "بحوث في القراءة والتلقي"،ت:محمد خير البقاعي،مركز الإنماء الحضاري ،ط1 ،1998 ،ص

[12]دانيال تشاندلر"معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات"- دراسات نقدية -،ت :شاكر عبد المجيد،أكاديمية الفنون،وحدة الإصدارات، 2000،ص80

[13]عمارة ناصر "اللغة والتأويل"-مقاربات في الهيرمينوطيقا الغربية والتأويل-،دار الفارابي ،منشورات الاختلاف،ط1 ،2007،ص116

[14]المرجع نفسه،ص 117

[15]محمد عبد المنعم خفاجي "الأدب في الثرات الصوفي"،مكتبة غريب ،ب.ط،ص185

[16]تاج الإسلام أبو محمد الكلاباذي "التعرف لمذهب أهل التصوف"-لولا التعرف لما عرف التصوف-،ت:طه عبد الباقي سرور،دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان، ب.ط ، 1980

[17]خالد بلقاسم "أذونيس والخطاب الصوفي"،دار توبقال للنشر،الدار البيضاء المغرب،ط2000،1،ص 130

[18]إلمارهو لنشتاين "رومان ياكبسون والبنيوية الظاهراتية"،ت:عبد الجليل الأزدري،مطبعة النجاح ،الدار البيضاء،ط1 ،1999 ،ص 120

[19]جاك لاكان "اللغة والخيال الرمزي "،ت :مصطفى المسناوي،منشورات الاختلاف ،الجزائر، 2006، ط 1، ص104

[20]بسام قطوس"تمنع النص متعة التلقي "-قراءة ما فوق النص ،دار أزمنة للنشر والتوزيع،ط1 ،2002،ص92

[21]سامح رواشدة "إشكالية التلقي والتأويل " ،ص68

[22]يوسف اسكندر"هيرمينوطيقا الشعر العربي "- نحو نظرية هيرمينوطيقية في الشعرية -،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان،ط1، 2008 ،ص80

[23]بن تيمية "فقه التصوف"، تهذيب وتعليق: زهير شفيق الكبي، دار الفكر العربي، بيروت،1993، ط1،،ص18

[24]عبد الرزاق قسوم"عبد الرحمن الثعالبي والتصوف"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،ب.سنة،ب.ط،ص51

[25] تاج الإسلام أبو محمد الكلاباذي " التعرف لمذهب أهل التصوف "، _لولا التعرف لما عرف التصوف_،تحقيق:عبد الحليم محمود ، طه عبد الباقي سرور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1980 ،ص10

[26]الطاهر بومزبر"التواصل اللساني والشعرية "-مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون-،منشورات الاختلاف ،2007،ط1ص13

[27]محمد شوقي الزين "تأويلات وتفكيكات ط،-فصول في الفكر العربي المعاصر-،ص105

[28]فولفغانغ إيزر"فعل القراءة "،ص71

[29]المرجع نفسه،ص 82